تأريخهم عبر العصور

يذكر كتاب (كنزا ربا (المقدس في سفر التكوين ان عالم الأثري (عالم الملائكة النورانيين) هو عالم مندائي،ويصفهم بشكل دقيق وهم يسبحون ويمجدون ويصلون للحي العظيم ملك النور السامي، وبأمر من الحي الأزلي تم خلق آدم(ع) وزوجه حـواء رأس السلالة البشرية عارفين بتعاليم الدين المندائي وقد أمره الخالق أن يعلم ذريته هذا الدين وينشر بينهم تعاليمه السماوية وبوحي من الخالق العظيم تعاقب الأنبياء والرسل بعد آدم) ع) ليواصلوا نشر التعاليم المندائية ويعتبر يحيى بن زكريا (ع) آخر الأنبياء المندائيين والذي ورد أسمه في الأنجيل المقدس والقرآن الكريم وجاء ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاث سور من سوره الكريمة هي سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الحج الى جانب فئات دينية أخرى معروفة في الجزيرة العربية كاليهود والنصارى .

أعلامهم في التاريخ

اشتهر الصابئة المندائيون منذ القدم بحبهم للعلم والأدب والمعرفة كما اشتهروا بعلم الفلك والطب ومنهم من عنى بتدوين التاريخ وأخبار الزمان فبرز منهم ثابت بن قره: الذي كان طبيبا وفيلسوفا بارعا في علم الرياضيات سنان بن ثابت بن قره: كان رئيس
الأطباء في بغداد زمن الخلافة العباسية
ابراهيم بن سنان بن ثابت: كان مهندسا
مشهورا وله كتابات مهمة في علم الفلك
البتاني: وهو عالم رياضي وفلكي وله كتابات
مهمة في علم الفلك
أبو أسحق الصابي: صاحب ديوان الرسائل
الدكتور عبد الجبار عبد الله :عالم فيزيائي معاصر معروف على الصعيدين المحلي والعالمي .

عددهم وموطنهم

كان الصابئة المندائيون منذ زمن قديم يسكنون مناطق عديدة تمتد على رقعة جغرافية كبيرة ولكنهم الآن يعيشون بشكل رئيسي في العراق والأحواز وهناك جاليات صابئية في أوربا وأمريكا واستراليا وأقطار أخرى أما عددهم فلا يتجاوز مئة ألف نسمة ,ورغم قلة عددهم فقد كان لهم دور بارز في مجالات العلم والأدب والمعرفة منذ العصر العباسي وحتى الآن .

المهن التي يمارسونها

منذ القدم كان يمارس الصابئة المندائيون بعض المهن المهمة كالصياغة التي تعد فنا ظل لصيقا بهم وكذلك الحدادة والنجارة ولا سيما صناعة الزوارق .

تأريخهم الحديث

إن طائفة الصابئة المندائيين هي جزء لا يتجزأ منن المجتمع العراقي منذ القدم ترتبط معه بوشائج عديدة وأبناءها جزء من الشعب العراقي لهم ما له من حقوق وعليهم ما عليه من واجبات وقد تقاسموا مع جميع العراقيين السراء والضراء و نالهم مثلما نال الشعب العراقي من ظلم وجور وألم من جراء الحصار الجائر المفروض على الوطن الغالي وقد برز من أبناء الطائفة نخبة متميزة في معظم المجالات العلمية والأدبية فمنهم العلماء والمهندسون والأطباء والفنانون والأدباء والأساتذة والتجار والصناعيون، ولهم دور فاعل في تقدم المجتمع وتطوره .

تأريخهم السياسي

لقد شارك الصابئة المندائيون إخوانهم العراقيين باعتبارهم جزء مهم في كل المواقف التي واجهت العراق عبر تاريخه الموغل في القدم وقدموا التضحيات من أجل صيانة الوطن والدفاع عنه كبقية شرائح المجتمع العراقي و ما زال الصابئة المندائيون يغمرهم الأيمان بحب الوطن وبحضارتهم العريقة وهم يسعون إلى ترسيخها والحفاظ عليها مع بقية أبناء الوطن الواحد

المندائيون في الذاكرة الإسلامية

د. رشيد الخيُّون

=======================

"يا يحيى خُذِ الكتابَ
بقُوَّةٍ وآتيَنَاهُ الُحكمَ صَبيّا وحَنَانَا مِن لَدُنّا وزَكوةً وكانَ تَقيّا
وبرّاً بوالديه ولم يَكُن جَبّاراً عَصِيّا وسلَامٌ عليهِ يَومَ ولِدَ ويَومَ
يُموتُ ويَوَمَ يُبعَثُ حَيّا"
)سورة مريم
12-14)

تقديم

يزخر الفقه والتاريخ الإسلاميين بمسائل ومرويات كثيرة حول الصابئيين المندائيين، كان المصدر الأول لهذا الإهتمم القرآن الكريم، وسوره الثلاث: "البقرة"، "المائدة" والحج. ثم حضورهم بحاضرات العراق العباسي مثل: واسط والبصرة وبغداد. يضاف إلى ذلك دورهم في الحياة الثقافية أيام العباسيين، ولا زال لقب الصابئي المندائي أو ابن مندة معروفاً في كتب تراجم الرجال والفقه والقضاء الإسلامية. من هؤلاء: أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار المندائي) تت605هـ) المعروف بمسند أهل العراق وبالمُعدّل، وكان والده قاضياً، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد (ت470هـ) ومنده لقب جده الأعلى ، ومنهم الحافظ أبو عبد الله بن منده (ت395هـ) الملقب بجوال الدنيا لكثرة سفره، والمحدث عبد الوهاب بن الحافظ(ت475هـ) وغيرهم، كل هؤلاء تدل ألقابهم أنهم كانوا مندائيين، قبل إسلامهم أو إسلام آبائهم.
وإن طغت تسمية الصابئة على هؤلاء القوم إلا أن اسمهم المندائي هو الأصل، وهو نسبة إلى منداهي الملاك الأول أو رمز المعرفة أوالحياة الأولى، وبهذا عُرف بيت عبادتهم بالمندي، أي بين المعرفة واي معرفة معرفة الله وكشف عوالم الكون، وبهذا ربما تعود أُصول العرفانية أو الأغنوصية إلى هذا الدين.
وإذا علمنا أن الشيخ معروف الكرخي كان صابئياً علمنا التأثيرات العرفانية في التصوف الإسلامي. قال الخطيب البغدادي : "أخبرنا محمد بن أحمد بن روق قال: سمعتُ أبا بكر محمد بن الحسن المقرئ المعروف بالنقاش، وسئل عن معروف الكرخي، فقال: سمعتُ إدريس بن عبد الكريم يقول: هو معروف بن الفيزران وبيني وبينه قرابة، وكان أبوه صابئاً من أهل نهر بان من قرى واسط"([1]). وقال ابن تغري" :كان أبواه من أعمال واسط من الصابئة.([2])"

أتخذ المندائيون الصمت سبيلاً قويماً في الحفاظ على كيانهم الديني، ولغتهم المندائية أتخذ المندائيون الصمت سبيلاً قويماً في الحفاظ على كيانهم الديني، ولغتهم المندائية عبر دهور طويلة، خدمهم غموض لغتهم الدينية، التي لا يفقهها مواطنوهم من الأديان الأخرى، يتهامسون بها للرد على سخرية جاهل ينال من عقيدتهم، أو معتد قصد ديارهم لفرض ما لا يريدون وما

لا يطيقون. فكثيراً ما يحدث الاعتداء عليهم لقلتهم ولشبهات عقائدية تدور حولهم، أقلها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم، أو يزهقون أرواح المحتضرين منهم، هذا ما شاع عنهم بجنوبي العراق.
والحقيقة أن من شعائرهم غسل المحتضر واكساؤه الكسوة الدينية البيضاء المعروفة بالرسته، اعتقاداً منهم أن ذلك يمُكن روحه من الصعود إلى مشوني كشطا(المكان السامي أي الجنة) بسلام. وبرر بعض الفقهاء نجاستهم لأنهم مشركون، وحكم هؤلاء حسب الآية القرآنية "إنما المشركون نجس"([3]). يقال هذا على المندائيين رغم إفراطهم في النظافة والطهر، وأباح البعض الآخر قتلهم، رغم وداعتهم وميلهم للسلم، فلرقتهم يعتذرون ويستغفرون أثر ذباحة الطير والحيوان.

خرق الشيخ دخيل صمت المندائيين عن تجاوزات الآخرين فيما يخص الشأن الديني، يوم تقدم لمقاضاة المؤرخ عبد الرزاق الحسني بسبب ما جاء في كتابه" الصابئون في ماضيهم وحاضرهم". ففي (11 كانون الثاني1931)، فتح الشيخ كتاب "الكنزا ربا" وقرأ أمام هيئة المحكمة ببغداد، باللسان المندائي (الآرامي الشرقي) وكان الأب انستاس الكرملي يترجم إلى العربية، وقد اقتنعت المحكمة أن المندائيين لسيوا عبدة كواكب ونجوم بل يعبدون الحي الأزلي، قرأ الشيخ بوثات (آيات) من الكتاب الأول، تسبيح التوحيد. تحقق ذلك بتعاطف من قبل متصرف بغداد آنذاك أمين الخالص والحاكم الأول لمحكمة الجزاء شهاب الدين الكيلاني مع قضية المندائيين.

وحصل أن اعتذر الحسني من الشيخ ووعده أن لا يعيد نشر الكتاب إلا بعد أخذ ملاحظات وتوصيبات الشيخ، لكنه طبعه عدة طبعات، وحتى السبعينيات كتب في مجلة "التراث الشعبي" مقالاً بعنوان "إذا مات الصبي([4])"، واضعاً فيه ما يدور بين العامة حول المندائيين، من أنهم يخنقون المحتضر، بينما الصحيح هم يلبسونه الثياب الدينية وهي الرسته، ويطهرون بدنه قبل الوفاة .والعامة التي لم تكشف لها طقوس الدين المندائي لم تحسب حساب خطورة اعتقادها بمواطنيها المندائيين، فما اشاعته عنهم هو القتل بعينه، والسؤال إذا كان المندائيون يقتلون أو يخنقون المحتضر فكيف لا يتعرضون للعقوبة الجنائية، وكيف جرى المؤرخ الحسني خلف هذا الادعاء الباطل؟ ومعلوم أن قتل الرحمة لم يجز إلا في بعض الدول الأوروبية وبعد نقاشات وصراعات حامية في البرلمانات، وهذا لا يجاز إلا بطلب المريض الشخصي، وفي حالة معاناته من قسوة الألم مع اليأس التام من شفائه، فأين ومتى مارسه المندائيون، وهم كما اسلفنا يعتذرون عن ذبح الحيوان والطير!
وخلاف ما قدمه الحسني من اعتذار للمندائيين بعد المحكمة المذكورة كتب في مجلة "الهلال" المصرية) أيار 1932) قائلاً: "فتلقينا من ضجيج الصابئة وإنكارهم ما جرَّنا إلى المرافعات ومحاكمات طال أمدها، ولكنها انتهت بفشل المدعين لعدم وجود مأخذ على ما كتبنا ونشرنا"([5]). لكن الحسني بعد أكثر من عشرين عاماً من تاريخ مقاضاته كتب إلى الشيخ دخيل يقول: "إكراما لخاطركم وحباً بدوام حسن العلاقة بيني وبينكم لا سيما بعد أن اتضح بأني لا أريد إلا خدمة التاريخ وتحري الحقيقة (20 تشرين الأول 1957). وكانت وزارة المعارف، في عهد الوزير خليل كنة قد ردت طلب عبد الرزاق الحسني، الذي عرض فيه شراء (205 (نسخة من هذا الكتاب، وجاء في الرفض: "ذلك لعدم الإفادة منه في مؤسساتنا الثقافية"، لكن الطلب نفذ في عهد الوزير منير القاضي.([6])
إن
صحت العبارة المندائيون أثر من آثار التاريخ الحية، فوجودهم يذكر بأنبياء ورسل، حاولت الأديان المتعاقبة نسخ شرائعهم، ولم يبق منهم غير صحف نوح وإبراهيم، والصابئة إن ذكروا في الكتب المقدسة فلم يذكروا بأكثر من تلميح واستشهاد وعبرة من الماضي .
فقول المندائيين: إنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض، وإن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين: كآدم وشيت وإدريس ونوح، يرفعهم إلى مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحدة في التاريخ؟
وأن الكل نحل من منحلهم، لذا من الصعب أن يعرف للصابئة المندائية مؤسساً، وهذه الخاصية، التي ميزتهم عن اليهودية والمجوسية والمسيحية والمانوية والإسلام وغيرها من الديانات العالمية، أشارت إلى قدمهم وروحانيتهم الصافية، وكأنهم يوافقون أبا الفتحِ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني حينَ قالَ: "إنما مدارُ مذهبِهم على التعصبِ للروحانيينَ"(الملَلُ والنحلُ . (
ويبدو أن غرض الشهرستاني من نقل، أو إبداع، الحوار بين الصابئة والحنفاء ([7])هو ميل الصابئة إلى الرسل من الكائنات النورانية، مثل هيبل زيوا(جبرائيل(، فالبشر لخطاياهم وما يتعلق بأبدانهم من فساد، لا يُصلحونَ للوساطةِ بينَ السماء والأرض. قالَ الشهرستاني في مذهب الصابئة: "إن للعالمِ صانعاً، فاطراً، حكيماً، مقدساً عن سمات الحدثانَ،

والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربينَ لديهِ، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً، وفعلاً، وحالة"([8.]
بيد أن ما أتى عليه الشهرستاني، من عدم اعتراف الصابئة بأنبياء من البشر، يفنده ما ورد في كتبهم من الصحف التي نزلت على آدم، والكتاب الذي نزل على أحد النوصرائيين، إدريس) دنانوخت)، ويصدقه، في الوقت نفسه، أنهم لم يسموا أحداً من البشر بالنبي أو الرسول، فالكل عندهم كانوا نوصرائيين، من آدمٍ إلى يحيى بن زكريا. فالكتابات الصابئية المندائية أشارت "إلى الاعتقاد بأن المعرفة أو العلم الرباني– منداهيي- إنما يؤتيه اللهُ عباده المختارين الصادقينَ) بهيرا زدقا)، إما وحياً وإما إلهاماً، وذلك هو صوت الحي الأقدم (شوت هيا قدمايي(، أو فيضاً سماوياً وكشفاً وهو التجلي، أو بواسطةِ رسلٍ أثيرين نورانيين.([9])"

أشار المندائيون، ربما لاهتماماتهم الفلكية، إلى وجود بشر خارج كوكب الأرض، فالكواكب السماوية عندهم، ما دون عالم النور، اتخذت سكناً للبشر والكائنات النورية، وكتبهم الدينية تُرشد إلى عوالم "يسكنها بشر مثلُنا، وتركز بالدرجة الأولى على عالمِ العهدِ مشوني كشطا، وتذكرُ أيضاً أن البشرَ في هذا العالمِ لا يختلفونَ عنا كثيراً، وعلى هذا الأساسِ فقد أمر هيي ربي قدمايي، الحيَ الأزلي، بنقلِ بناتِ آدمَ من هذا العالم (اره اد تبيل)، الأرض، ويجلب زوجات من عالم مشوني كشطا لأولاده.([10])"
ويصفُ غضبان رومي، وهو واحدٌ من بين أبرز المثقفين المندائيين، مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض و إنسان الكواكب الأخرى، حسب تصورات ديانته، بالقول: "من ذريتهن تكوّن الإنسان الحالي، الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى، وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم مشوني كشطا، وينـزل ضيفاً على أخواله هناك، مستقبلاً من أبناء عماته"([11.]
كان آدمُ أباً للبشر وحواء أمهم، لكن البشرية، حسب الكتب المندائية، فنيت مرات بكوارث سببها عالمُ الظلام المنحوس وما فيه من شر أنتقل إلى الآدميين عبر مادة الطين التي منها جُبل جسد آدم، وفي كل فناء يبقى رجل وامرأة يتجدد منهما الجنس البشري. "فبعد شيت قضي على هذا العالم بالحرب، ولم يبق منه إلا رجل وامرأتُه، هما رام ورود، وبعد عشرات الألوف من السنين فني العالم بالنار، ولم يبق منه إلا شوربي وزوجته شور هيبل، وبعد عشرات الآلاف من السنين جاء الطوفان، ولم ينج منه إلا نوح وزوجته (انهريتا)وابنه سام"([12.]
وحسْب أغلب الأديان، ومنها المندائية، إن هذه الكوارث ضرورية لغسلِ الأرض من خطايا البشر، وبهذا قال شاعر البشر أبو العلاء المعري، حسب تسمية معروف عبد الغني الرصافي له، وكأنه قرأ الكنـزا ربا وتبحر فيها:

والأرضُ للطوفانِ مشتاقةٌ
لعلها من درنٍ
تُغتسل
قد كثُرَ الشرُ على ظهرِها
وأتهم المُرسِلُ
والمُرسلُ
إن اعتقادَ المندائيين بوجود بشر يعيشون على الكواكب العليا يقود إلى علاقة ما بنظرية أفلاطون: "المُثل" أو" النماذج"، وبالتالي إلى صلة ما بالفكر اليوناني بشكلٍ عام. ولا ندري، هل كان هذا التوافقُ توارد خواطر أم بتأثيرات فلسفية مباشرة. في هذا المجال قد يكون للحرانيين في نقلها دورٌ ما .
ولا يستبعد أيضاً في أن يكونَ الأمر امتداداً سومرياً وبابلياً، حيث القول بوجود مجتمع الآلهة، ومكانُه العالم العلوي، وخُلق البشر على هيئتهِ ونظامه. جاء في النصوص المندائية على لسان المتوفى: "أذهب إلى شبيهي، وشبيهي يأتي إليَّ، يتذكرني ويحتضنني، كما لو أنني خارج من السجن ."

تناول الفقهاء والمؤرخون المسلمون، شيعة وسنُّة، الدين المندائين، وأختلفوا حوله في أن يكون أصحابه من أهل الكتاب أو شبه الكتاب، واختلفوا أيضاً في جواز أخذ الجزية
وبالتالي الاعتراف بهه كديانة لها حق حماية المسلمين والأمن بينهم. إلا أن أكثر المتشددين ضدهم هم فقهاء الشافعية، بينما كان للفقهاء الحنفيين والشيعية فتاوى وآراء إيجابية منهم، اعتاماداً على ما ورد في القرآن الكريم بخصوص الصابئة، وما ورد في الكتب الصابئية، حسب قراءة آية الله علي خامنئي لها .
كذلك كانت لرجال الدين الشيعية صلات صداقة ومودة على غرار صداقة العلم الشيعي البارز الشريف الرضي والعلم

الصابئي البارز إبراهيم الصابئي. يتناول هذا الكراس معاملة الفقه الإسلامي وروايات التاريخ في أمر قوم لا زالوا يحتفظون باللغة الآرامية ويرون أنفسهم أنهم أتباع آدم أبي البشر.
وبالتالي المندائيون أهل دين سماوي، توجهوا إلى غاية السموات بعقولهم وأفئدتهم، وبفكرة السفن الكونية وبحارتها الكائنات النورية، ولم يجعلوا الكواكب آلهة بل هي عندهم أمكنة لكائنات النور والظلام، والله لديهم متعالٍ عرشه يطوف فوق بحار النور النقية. ومثلما للأديان الأخرى معاريجها لهم معراجهم وجنتهم ونارهم.
غير أن كل هذا كان مخفياً على المحيطين، لم يعرفوا منهم غير أنهم يعبدون الكواكب كامتداد لصابئة حران،أو يسجدون إلى كائن صاغ حروف اسمه الآخرون، عن جهل، من العبارة المندائية المقدسة" بشميهون اد هي ربي"، وتعني باسم الحي ربي، مثلها مثل عبارة المسلمين" بسم الله الرحمن الرحيم". وإذ جعل المسلمون الرحمة صفة الله الأولى، يطلبونها منه في مستهل كل عمل، جعل المندائيون الحياة صفة دائمة يذكرونها في مستهل كل عمل وحركة، فالحياة الأزلية، حسب كتابهم، هي الفارق الأكبر بين الله والبشر

المندائيون في الذاكرة الاسلامية ...(ح2)

آراء الفقهاء

هل من خلاف وتعارض بين ما ورد في القرآن وبين ما كتبه المؤرخون ونقله الإخباريون وشرعه الفقهاء حول موقف الإسلام من الأديان الأخرى؟ الإجابة على هذا السؤال تستدعي متابعة دين من هذه الأديان عبر الذاكرة الإسلامية، من تاريخ ورواية وفقه وممارسة.
وربما لعبت الظروف التي ورد فيها النص القرآني، والظروف التي استدعت المؤرخين والفقهاء تجاوز هذا النص، دوراً في هذا التعارض .

فمعظم المفسرين الفقهاء صرحوا بنسخ الإسلام للأديان الأخرى بما فيها الكتابية، حسب الآية: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.(13)"
بدأ التصريح بنسخ أو إلغاء الآخر عملياً في الجزيرة العربية بترحيل يهودها ومسيحيي نجران على يد الخليفة عمر بن الخطاب لتبقى خالصة للإسلام، وبلا شك أثر هذا الموقف، سلباً، في العلاقة مع أهل تلك الأديان. لكن من الصعوبة بمكان الغاء النص القرآني الذي ضمن للكتابيين وغيرهم الاحتفاظ بدياناتهم وفق شروط، استغلها عدد من الخلفاء بداية من عمر بن عبد العزيز وحتى خلفاء بني العباس وأمراء المغول بعد إسلامهم، ومن أتى بعدهم، ليضيقوا على أهل الذمة في لباسهم ودور عبادتهم وحياتهم الشخصية، ووراء هذه السياسات كان إخباريون وفقهاء.
وبهذا لم يعترف فقهاء مسلمون للصابئة المندائيين ما أعترف لهم فيه القرآن الكريم، كأهل دين وكتاب في ثلاث سور من سوره وهي: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(14.)

تتكرر الآية بالصيغة نفسها "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون (هكذا وردت) والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(15)، وصيغة أخرى أُضيف فيها المجوس والمشركين، "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد.(16)"
جاء في أسباب نزول الآية الأولى، وبالتالي يعبر سبب نزولها وتفسيرها عن نزول الآيتين الأخيرتين: أنها "نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، لما قدم سلمان على رسول الله (ص) جعل يخبر عن عبادة أصحابه واجتهادهم،وقال: يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال رسول الله: يا سلمان هم من أهل النار، فأنزل الله: إن الذين آمنوا والذين هادوا ... وتلا قوله:

ولا هم يحزنون.(17)"
وروي عن عبدي الله، ابن مسعود وابن عباس، وغيرهما" :نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي، وكان من أهل جندي سابور من أشرافهم"(1 .وهنا لا يقصد بديانة سلمان المسيحية أو اليهودية، فالكثير منهما دخل الإسلام قبل سلمان، وجاءت فيهما نصوص قرآنية كثيرة، لم تحتج إلى تدخل أحد، سلمان أو غيره، كما لا يقصد فيها المجوسية، وإن كانت منتشرة في بلاد فارس، حيث انحدار سلمان، لان أسباب النزول خاصة بالآية (62) من سورة البقرة، والمجوس لم يذكروا إلا في سورة الحج .(17) لذا الاحتمال الوارد أن سلمان الفارسي واسمه الحقيقي ،حسب الطبري: (مايه بن بوذخشبان بن ده ديره)(19) كان صابئياً مندائياً، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس، يوم كان العراق وإيران تحت حكم واحد.

يروى عن عائشة كان للرسول مجلس مع سلمان الفارسي" ينفرد به في الليل حتى يكاد يغلبنا على رسول الله"(20).
ربما كانت هذه العلاقة سبباً في ورود شيء من اعتقادات المندائيين في الإسلام، فهم أحناف، بالمعنى المعروف للحنفية.
ومعروف أن تسمية الإسلام ممتدة في أديان أخرى، حتى أن فقهاء مسلمون يعدون الاديان التي سبقت الإسلام مراحل لدين واحد. قال الفقيه السوداني المقتول محمود محمد طه" :بالإسلام جاء جميع الأنبياء من لدن آدم وإلى محمد.(21)"
و ورد في دعاء مندائي:"يا شلماني وامهيمنى.. يا امهيمنى وشلماني.. لا تيفخون من مملا لخون"(22)، ومعناها: "أيها المسلمون المؤمنون، وأيها المؤمنون والمسلمون، لا تتراجعون عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه". وبالتالي لا أجد سبباً يمنع من إشارة الآية "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"(23) إلى مندائية إبراهيم الخليل.
ورغم أن الباحث الراحل هادي العلوي لم يشر إلى صلة لسلمان بالمندائيين، وأكد ما جاء في سيرة سلمان أنه كان مجوسياً ثم مسيحياً، إلا أنه بلا قصد أعطى إشارة إلى تلك الصلة وهي الموقف من الكنوز، يفهم ذلك من قوله :
"وكنت رجحت في دراستي لمسألة تحريم الاكتناز أنها وقعت بتأثير من سلمان"(24). وقد يعزز هذا الرأي أخبار زهد سلمان الفارسي المتماثل مع زهد كهنة المندائيين. ورد تحريم الاكتناز في الآية: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.(25)"
تعد سورة التوبة أو براءة من أشد السور تهديداً للمشركين، وهي السورة الوحيدة التي لم تستهل بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم"، وحين سأل الإمام علي بن أبي طالب عن السبب قال" :لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف"(26.)
وفي كتاب المندائية المقدس" الكنزاربا" أكثر من نص يحرم الكنز منها: "وأن حب الذهب والفضة وجمع الأموال، صاحبه يموت ميتتين في موت واحد"(27)، و"لقد ولعت بالفضة والذهب فألقيا بك في لجة اللهب"(2، و"لقد شغلني ذهبي ..
وشغلتني فضتي، ذهبي رماني في الجحيم وفضتي أسكنتني في ظلام بهيم، وحليّ ومرجاني ..
آليت أن يصادقاني.. فأي شر علماني.(29)"
فسر محمد بن جريرالطبري (ت310هـ) تسمية الصابئين، حسب ما ورد في الآية (62) من سورة البقرة بكلام طويل نلخصه بالآتي:
أولاً: أنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم،
ثانياً :منزلتهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم،
ثالثاً: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله (هذا خلاف ما أضافه الرواة على حديث سلمان الفارسي مع النبي محمد، من أن قومه يؤمنون برسالته ونبوته)
رابعاً :يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس،
خامساً :فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، سادساً: قبيلة من نحو السواد (العراق) ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى(30.)

ما يخص الموصل، فلعل المقصودين كانوا الإيزيديين، فهم يقولون لا إله إلا الله، ولم يقروا بنبوة محمد، وقبل أن يحل فيهم الشيخ عدي بن مسافر الذي أدخل إلى دينهم ما أدخل من عقائد جديدة. وما يخص قراءة الصابئة للزبور فهي ما زالت منتشرة بين العوام بالعراق، رغم عدم صحتها، فهو من كتب اليهود، جاء ضمن العهد القديم من "الكتاب المقدس" ، تحت اسم "سفر المزامير"، وهي مائة وخمسون مزموراً، أكثرها كان لداوود، لاعلاقة للصابئة المندائيين به.
يضاف إلى ذلك أن الزبور يعني الكتاب، وكتاب الصابئة زبور" الكنزاربا"، لا الزبور الذي غلب لفظه على مزامير داوود

فعرفت بالزبور. ليس بين النقاط، التي أتى بها الطبري عن الإخباريين والمفسرين السابقين، ما يشير إلى المندائيين الحاليين غير الرأي القائل: "قبيلة من نحو السواد، ليسوا بالمجوس ولا اليهود ولا النصارى."

إن الجهل في تاريخ هذا الدين، بسبب باطنيته، جعل الطبري ينقل عن الصنعاني (ت211هـ) عن سفيان الثوري: "الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين"(31). ولا نعتقد أن في الشرق، منبع الأديان، قوماً لا دين لهم! والذي يطلع على كتاب" الكنزاربا" وترجمات الكتب الأخرى، مثل "ديوان أباثر" والرسوم الفلكية والكائنات النورانية قد يعذر الزمخشري (538هـ) على الشطر الأخير من عبارته التالية: "قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة"(32). هذه أهم آراء المفسرين الأقدمين، ولنرى ما جاء به المحدثون.

إن غموض تسمية الصابئة وأحوالهم الدينية كان سببه، كما أسلفنا، باطنية أو سرية الطقوس والنصوص، فهم قوم اعتادوا على العيش تحت الاضطهاد بداية من اليهودية والمسيحية، بواسطة المبشرين الذين اعتبروهم نصارى منحرفين، ثم المسلمون، وابرز اضطهاد الأخيرين لهم هو فتوى القتل بحقهم من قبل محتسب بغداد والقاضي والفقيه الشافعي أبي سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (ت328هـ) أيام القاهر العباسي.

روى الخطيب البغدادي (ت463هـ) في سياق ترجمة الأصطخري: "أفتاه بقتلهم، لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى، وأنهم يعبدون الكواكب، فعزم الخليفة على ذلك، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له قدر فكف عنهم)"

.(33ذكرت فتوى القتل في مصادر إسلامية ترجمت لحياة الأصطخري منها" سير أعلام النبلاء" لشمس الدين الذهبي (ت748هـ)، وعزف عن ذكرها آخرون مثل شمس الدين ابن خِلّكان (ت681هـ) في "وفيات الأعيان."

كان صاحب فتوى القتل شافعي من أبرز فقهاء عصره، يعرف بفقيه العراق، وتولى حسبة بغداد، فأحرق مكان الملاهي. وبعد حوالي قرنين من الزمان جاء في رسالة رئيس ديوان الجوالي، محمد بن يحيى بن فضلان (ت631هـ) الشافعي أيضاً، الخاصة بأهل الذمة إلى الناصر بالله العباسي) ت622هـ)، فقرة تذكر بفتوى الأصطخري في الصابئة والحث على تطبيقها: "الصابئة قوم من عبدة الكواكب، يسكنون في البلاد الواسطية (بين الكوت والبصرة) لا ذمة لهم، وكان في قديم الزمان لهم ذمة، فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الاصطخري، من أصحاب الشافعي، في حقهم، فأفتاه بإراقة دمائهم، وأن لا تقبل منهم الجزية، فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار، فأمسك عنهم، وهم اليوم لا جزية عليهم، ولا يؤخذ منهم شيئ، وهم في حكم المسلمين والأمر أعلى.(34)"

والسؤال، كيف عبد الصابئة الكواكب وكتابهم يقول" :باسم الحي العظيم، أشرق نور الحي، وتجلى منادهيي بأنواره، فأضاء جميع الأكوان، حطم ألوهية الكواكب، وأزال أسيادها من مواقعهم"(35). وكيف عبد الصابئة المندائيون الأصنام والأوثان وكتابهم يقول: "من يقدم الضحايا والقرابين تعقد خطاه في جبل الظلام (جهنم) فلا يرى نور الله، أما من آمن وأتقى فله من النور مرتقى حتى يبلغ بلد النور"(36). وهم قبل أن تحرم على الأصطخري الخمور حرموها بالقول: "وليعلموا أن الخمرة يوضع شاربها في قيود وأقفال، وتثقل عليه السلاسل والأغلال"(37).

كانت فتوى القتل المذكورة، في القرن الرابع الهجري، بعد أن أجاز الفقيه الحنفي وقاضي القضاة أبو يوسف، في القرن الثاني الهجري، التعامل مع الصابئة بأخذ الجزية منهم أسوة بـ "جميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة (من غير العرب (والسامرة"(3 .

وحكم الإمام أبو حنيفة فيهم: "إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النجوم كما نعظم الكعبة"(39)، وأضاف أبو الثناء الآلوسي: "هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم.(40)"

والغريب في الأمر أن هذا التعامل مع الصابئة، وإن كان يحمي دمائهم، إلا أنه لا يتناسب مع حكم القرآن فيهم، أسوة باليهود والنصارى، في الآية (62) من سورة البقرة .والغرابة الأكثر، أن أبا يوسف كان عراقياً من أهل السواد، والصابئة المندائيون ليسوا بعيدين عن سمعه ونظره. ويشترط أبو علي الماوردي الشافعي (ت450هـ) في أخذ الجزية منهم "إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم، و إن خالفوه في فروعه"(41). ومعلوم أن الأُصول هي أساس الدين والمذهب، وما الفروع إلا وصايا لتطبيقها.

وإن جاز الاصطخري والماوردي كشافعيين أخذ الجزية من المجوس، لما ورد عن الرسول بشهادة الصحابي عبد الرحمن بن

عوف أنه أخذها من أهل البحرين وكانوا مجوساً، فأن ابن قيم الجوزية(ت751هـ)، وهو جنبلي المذهب، قال: "الصابئة أحسن حالاً من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأَوْلى، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ولا يتمسكون بكتاب، ولا ينتمون إلى ملة، ولا يثبت لهم كتاب ولا شبه كتاب"(42). وهذا اعتراف ضمني من فقيه حنبلي كبير في مذهبه، وتلميذ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد المعروف بابن تيمية (ت726هـ)، بكتب أو شبه كتاب للصابئة.

إن حكم الماوردي كان مخالفاً أيضاً للقرآن، فالقرآن لم يشترط موافقتهم لدين آخر، مع علمنا أن موافقة الصابئة المندائيين للإسلام أكثر بكثير من موافقة أو مقاربة اليهود والنصارى له، والذي يدرس كتابهم ويقارنه مع نصوص القرآن، ويدرس فقههم ويقارنه مع الفقه الإسلامي يجد الموافقة واضحة.

من جانب آخر خالفت فتوى الاصطخري وخالف حكم الماوردي وتحريض ابن فضلان ضدهم، والجميع شافعيين، إمامهم الأول محمد بن إدريس الشافعي (204هـ) حين أفتى: "الصابئون والسامرة مثلهم يؤخذ من جميعهم الجزية، ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان، ولا ممن عبد ما استحسن من غير أهل الكتاب"(43)، ومَنْ تؤخذ منه الجزية يحرم دمه ولا يطلب منه مجارات اليهود والنصارى بشيء إلا الإقرار بوجود الله.

يضاف إلى ذلك أن الماوردي من أهل البصرة، حيث أحد مواطن الصابئة، ويورد السؤال أيضاً، ألم يكلف الفقهاء من أبي يوسف و الأصطخري و الماوردي ثم ابن فضلان أنفسهم وحاولوا استقصاء حقيقة هذا الدين من كاهن أو خبير من أهله، بدلاً من أن يعدوه من المشركين المجازين، أو يصدروا فيهم حكم القتل، أو تشترط عليهم موافقة اليهود والنصارى؟ إنه مجرد استفسار، يضع أمامنا أدوات الفقيه ومستوى علمه وحرصه، فالكل استخدموا أداة التاريخ المكتوب ورواية الحديث، وتركوا الواقع المعاش. ولم ينته الأمر عند الفقهاء القدماء بل تواتر هذا الاسلوب إلى المعاصرين من الفقهاء، رغم كثرة الدراسات وتبدل أحوال المعرفة، إلا أنهم ظلوا يجهلون أمر الصابئة وكأنهم خارج الكون أو يتعاملون مع دين في مجاهل أفريقيا.

قال الشيرازي بحذر وتردد: "فيهم غموض وخلاف، وربما قيل عبدة نجوم"(44). ويرى الطباطبائي في "الميزان" أن عقيدتهم مزيج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرانية. ولعل صاحب الميزان أول المحدثين، من فقهاء المسلمين، ميز بين الصابئة الحرانيين والصابئة المندائيين، ويؤكد أسباب نزول الآية (62) من سورة البقرة في ديانة سلمان الفارسي السابقة(45). ولا يأتي الطباطبائي، رغم بحثه المطول فيهم، بجديد على ما ورد في كتب الأقدمين.

ويعد محمد حسين فضل الله، عن مؤرخين وكتاب مهتمين، أن الصابئة فرقتان: المندايا أو نصارى يوحنا المعمدان وصابئة حران الوثنيين، ويذهب مستفيداً من بحوث أخرى، على الأرجح من بحث "الصابئة المندائيون" لليدي دراوور، إلى أن "الصابئة الذين ذكرهم القرآن إلى جانب اليهود والنصارى من أهل الكتاب يعدون من المنديا، ولا شك في أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبري (ص ب أ) أي غطس، ثم سقط الغين، وهو يدل بلا ريب على المعمدانيين.(46)"

ولعل آية الله فضل الله ينفرد من بين علماء الدين والمفسرين بتحفظه على قبول نسخ الآيات التي ورد فيها اسم الصابئة بالآية: "ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"(47)، إذ قال: "نتحفظ على هذا الجواب، لأن مدلول هذه الآية لا يتنافى مع مدلول تلك، حتى نفرض نسخ الثانية للأولى، لأن الظاهر إرادة الإسلام بمعناه المصطلح، كما يلوح ذلك من صدرها، وهو الالتقاء على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح"(4 .وهذا ما تقره الأديان المشار إليها في الآية.

ويقترب الشيخ محمد جواد مغنية من الصواب عندما قال في الصابئين:"قوم يقرون بالله وبالمعاد وببعض الأنبياء، ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير والشر، والصحة والمرض، ومنهم طائفة في العراق الآن"(49). وعلى خلاف مَنْ اشتق تسمية الصابئة من صبأ العبرانية أي غطس وتوضأ، وجد مغنية أن التسمية مشتقة من"صبأت النجوم أي طلعت"، ويعدهم بأقدم الأديان في التاريخ. ويبدو لي أن مغنية اطلع على سلسلة المقالات التي حبرها الأب أنستاس الكرملي في مجلة "المشرق" في العام 1900 –1901، وذهب فيها إلى اشتقاق تسميتهم من الضوء.

بداية من صاحب أكبر موسوعة فقهية "جواهر الكلام "النجفي، من أعلام القرن التاسع عشر، وانتهاء بالسيد السيستاني، المرجع الشيعي الحالي بالنجف، لم نجد رأياً محرضاً في التعامل ضد أهل هذا الدين، بل أن آية ال العظمى له أبا القاسم الخوئي اعبرهم من أهل الكتاب، وقدم مرشد الدولة الإيرانية آية الله علي خامنئي بحثاً مفصلاً فيهم عدهم من أهل الكتاب ومن الأديان الموحدة.